الفصل الثامن

جواسيس عصر الفضاء

في النصف الثاني من القرن العشرين ، بدأت الآلات والحاسبات الالكترونية تتولى المهام التي كان الرجال يقومون بها في السابق . وأصبح الإعتماد منصبّاً على تقنية رقائق السيليكون لأنها تقلّص المصاريف وتقدّم أمكانيات واسعة . ولم تكن صناعة التجسس استثناءً من هذه القاعدة . لكنّ الجواسيس البشريين أوجدوا طرقاً بديلة في بعض الأحيان لوقف هذا الزحف التقني . . .

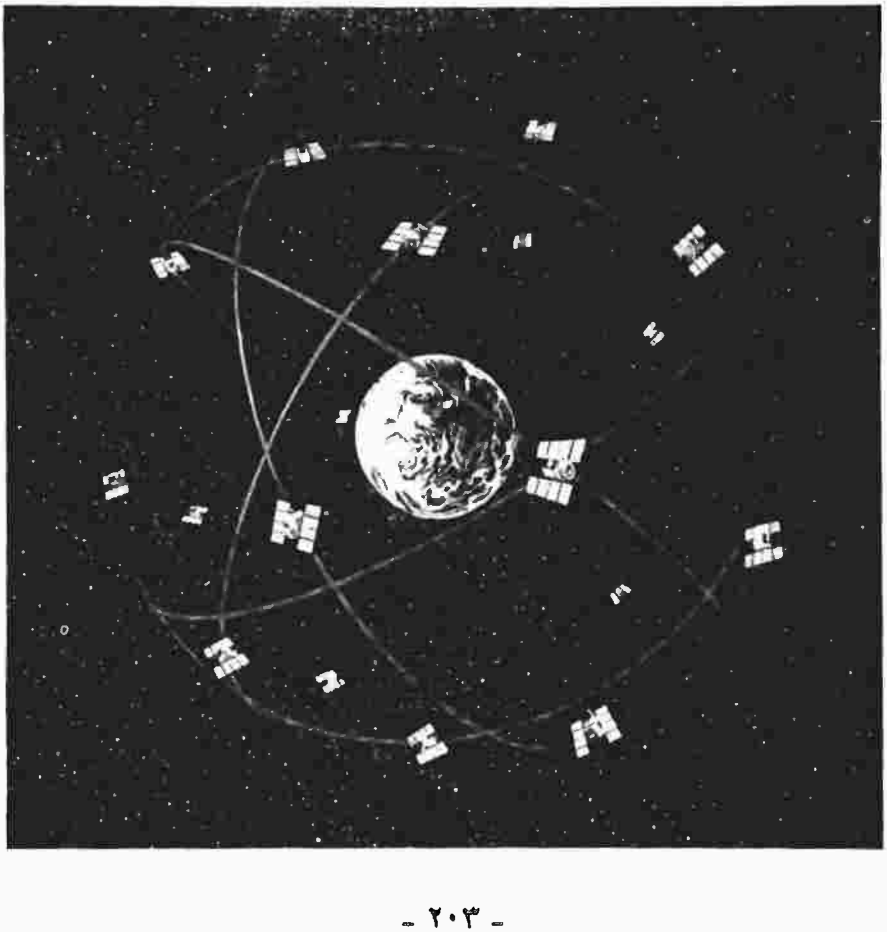

مراقبين سريين للبر والبحر والجو

لم يصدّق «ليس براون» عينيه المتعبتين من شدة النعاس . فعلى بابه وقف رجل شرطة وملاح طائرة مروحية تابعة لسلاح الجو الملكي بثياب الطيران الكاملة . وكان وجهيهما العابسين مفاجأة له في الساعة ٦,٠٠ . صباحاً ، لكن السبب الذي دعاهما لسحب «ليس» من سريره كان أكثر غرابة . لقد أمضت الطائرات المروحية والسفن الليل بطوله وهي تحاول العثور على مصدر إشارة استغاثة لاسلكية . وحدد عمال الرادار في مدينة تولوز بفرنسا بأن الإشارة صادرة من منطقة مصب نهر كلايد في اسكوتلندا . وقد ضيق فريق العمل في محطة بيتريفي للبحث والإنقاذ وقاعدة فاسلان للغواصات النووية الخناق على الهدف ـ الذي كان منزل «ليس» المتواضع في إرسكين قرب غلاسكو . وكانت أداة الجريمة جهاز إرسال إشارة لاسلكي رخيص وموضوعا في أعلى خزانة للثياب في غرفة نوم إضافية في منزل «ليس» . ولقد أرسلت الأداة البالغ ثمنها (١٠) جنيهات ومضات لاسلكية كلّفت قرابة (٢٠٠٠٠) جنيه ، وقالت زوجته ماريلين للصحفيين :«إننا نشعر بإحراج بالغ» .

اعتبرت الصحف التي صدرت في يوم ١٦ تموز ١٩٨٣ تلك القصة طُرْفة للتندّر . لكن أهميتها كانت أكبر من أن تكون مجرد قصة طريفة ، لأن أولى الأخبار عن نداء الإستغاثة جاءت عبر قمر اصطناعي روسي . وكانت قدرته على التقاط هدف صغير للغاية من على بعد أميال على مداره فوق الأرض دليلاً واضحاً على الفعالية المرعبة لعمل جواسيس الفضاء السري . وخلال ستة أسابيع ، أظهرت حادثة أكثر خطورة بأن الغرب أيضاً كان لديه أعين وآذان إلكترونية تجوس كل جزء من الكوكب . فعندما قصفت مقاتلات «الميغ» الروسية طائرة تابعة للخطوط الجوية الكورية وعلى متنها ٢٦٩ راكباً في السماء المظلمة لإحدى الليالي فوق جزيرة ساخالين ، الواقعة بين الأراضي السوفييتية واليابان ، قال عامل استخبارات أمريكي :«لقد علمنا بالتأكيد قبل موسكو عمّا كان يفعله ويقوله ملاحوا طائرات الميغ المقاتلة» . لقد كانت ذخيرة حربية لا تقدّر بثمن في أزمة دولية روّعت العالم . وأوضحت بالضبط لماذا تعتبر تقنية عصر الفضاء الآن معادلة لأكثر من ٨٥ بالمئة من عمل جمع الحقائق التجسسي الحديث . ولم يعد الجواسيس البارزين بعد الآن عملاء بشريين يعملون لدى الإستخبارات المركزية الأمريكية والإستخبارات

الروسية والاستخبارات العسكرية البريطانية ، بل أصبحوا أقماراً صناعية معقدة ، وسفن استطلاع ، ومحطات تنصت أرضية فائقة الحساسية ، وذاكرات معقدة لأجهزة كمبيوتر تعمل على مدار ساعات اليوم .

ـ طائرة أواكس للتجسس الالكتروني .

ـ طائرة تجسس بعيدة المدى مزودة بأجهزة الكترونية حديثة .

وأُنيطت مهام الأمن الرئيسية في الغرب بوكالة الأمن الوطني الأمريكية ، التي قاعدتها في فورت ميديا وتَشْغَلُ موقعاً مساحته ٤,٤٥ هكتار (١١ فدان) في مزرعة بمنطقة ماريلاند الواقعة على بعد ٤٨ كم (٣٠ ميل) شمالي واشنطن ، وبمقر الإتصالات الحكومي البريطاني ، الواقع في تشيلتونهام بغلوشسترشاير . ويعمل لديهم قرابة ١٤٠٠٠٠ موظف ، وبكلفة تقدر بخمسة عشر بليون جنيه استرليني في العام الواحد للتشغيل . وحسبما قاله موظف سابق في وكالة الأمن الوطنية الأمريكية : فإنّ باستطاعتهم «تعديل النموذج دقيقة بدقيقة عن كلّ ما يحدث في العالم ويمكن أن يكون ذو أهمية عسكرية أو سياسية» . وقال رجل عَمِلَ في السابق لدى مقر الإتصالات الحكومي البريطاني : «إن بإمكانهم إلتقاط أي شيء يتحرك على شاشة الرادار ، من كأس شاي إلى قنبلة ذرية» . وتلك المقدرة تأتي من التطلع على الكوكب من جميع الزوايا .

لقد طار الجواسيس في السماء منذ القرن التاسع عشر ، عندما أرسل جنرالات الحرب البارعين مناطيد هواء ساخن وعلى متنها الرجال فوق حدود الأعداء لمعرفة قواهم وأساليبهم بالتحديد . وأضافت آلات التصوير ، خلال الحرب العالمية الثانية ، بعداً جديداً لملاحي طائرات الاستطلاع ، وبلغت ذروتها في الخمسينات من هذا القرن بالطلعات الجوية على ارتفاعات شاهقة التي قام بها الطيارون الأمريكيون فوق روسيا . لكن إسقاط طائرة الملاح «فرانسيس غاري محترقة في ١٥ أيار ١٩٦٠ سبَّب إحراجاً علنياً . وقبل أشهر كانت طائرة أخرى قد أُجبرت على الهبوط ، ولم تُسمع أخبار طاقمها المؤلف من ثمانية ملاحين بعد ذلك أبداً . كما أرسل الرئيس أيزنهاور طلعات جويّة أخرى ، وفي عام ١٩٦٣ ـ بعد إطلاق سراح باورز في عملية تبادل أسرى مقابل رودولف آبل بوقت قصير ـ تمّ إرسال أول قمر اصطناعي غير مأهول إلى مدّاره . وأثبتت أعمال الإستطلاع الفضائي فائدتها خلال عامين فقط ، بالكشف عن إنتاج البلاتونيوم في مصنع منغوليا الداخلية حيث لا يستطيع أي عميل غربي الوصول إلى هناك ، ونبّهت أمريكا لأول اختبار لقنبلة ذرية في الصين . وقد تمّ إدخال العديد من التحسينات على الأقمار الصناعية مذّاك حتى أصبحت أعمالها التجسسية مذهلة ، كما رأينا في إشارة استغاثة إريكسون والعاصفة التي أثيرت حول إسقاط الطائرة الكوريّة .

ـ مركز الكتروني لجمع ومعالجة المعلومات التجسسية .

يمكن لآلات التصوير التي على ارتفاع ٣٢١ كم (٢٠٠ ميل) أن تركز عدساتها على جسم لا يزيد طوله عن ٣٠,٤ سم (قدم واحدة) . ويمكن لأولئك الذين يعملون خارج أمريكا أن يتأكدوا بأن الأقمار الصناعية تقرأ أرقام سياراتهم وعناوين الصحف التي يحملونها بعدسات سماكتها ٢٤٣,٨ سم (٩٦ إنش) . كما أن باستطاعة المراقبين أن يعرفوا فيما اذا كانت الأهداف البشرية تضع نظارات أم لا . وتحدد أجهزة المراقبة بالأشعة تحت الحمراء مواقع الصواريخ المخبأة تحت الأرض بقياس تغيّرات درجة الحرارة في القشرة الأرضية . وتتنصت أجهزة إلتقاط الأصوات على الاتصالات اللاسلكية والهاتفية والأمواج السلكية . وقد التقطت الأقمار الصناعية الأمريكية محادثات لاسلكية بين أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي أثناء ما كانوا متجهين إلى اجتماعات في الكرملين بسيارات «ليموزين» مختلفة . وهنالك أقمار صناعية أخرى تحدّد مواقع الصواريخ والغواصات النووية ومناطق الإشعاع الذري . ويستطيع بعضها إعطاء إشارات مزيفة للفنيين السوفييت الذين يقومون باختبارات على الصواريخ .

يدعم التجسس الجوي قرصنة أسرار على سطح البحار وفي أعماق المحيطات ، فقد خططت موسكو لتحركات المئات من سفن الصيد التي لا يُشك بأمرها ، والسفن التجارية البريئة المظهر ـ فيتنقلون بين المرافىء الغربية لجمع المعلومات ، ويجوبون الشواطىء ذات الأهميّة العسكرية ، ويَقْطرون سفن شمال الأطلسي العسكرية أثناء التمارين القتالية . وقد تبع بعضها القوات البريطانية البحرية ، في أوائل عام ١٩٨٢ ، إلى جنوب المحيط الأطلسي أثناء توجهها إلى جزُر الفوكلاند. وبعد عام واحد ، رست سفينة تجارية على بعد ميل من شواطىء فلوريدا لمراقبة العلماء الأمريكيين أثناء إجرائهم للاختبارات على صواريخ «ترايدنت» . وقال مراقب أمريكي بأنها كانت تحمل : «هوائيات الكترونية ورادارات صغيرة عديدة يمكن أن تعرضها للانقلاب والغرق لثقلها» .

ويحتوي الأسطول الأمريكي على سفن تجسس أيضاً ، تبحر باتجاه بؤر التوتر للتنصت على الاتصالات السلكية واللاسلكية . وقد قصفت الطائرات الإسرائيلية إحداها في البحر الأبيض المتوسط خلال حرب عام ١٩٦٧ . وبعد عام واحد ، حصلت كارثة أعظم . إذ احتجزت أربعة قوارب حربية ، تابعة لكوريا الشمالية ،

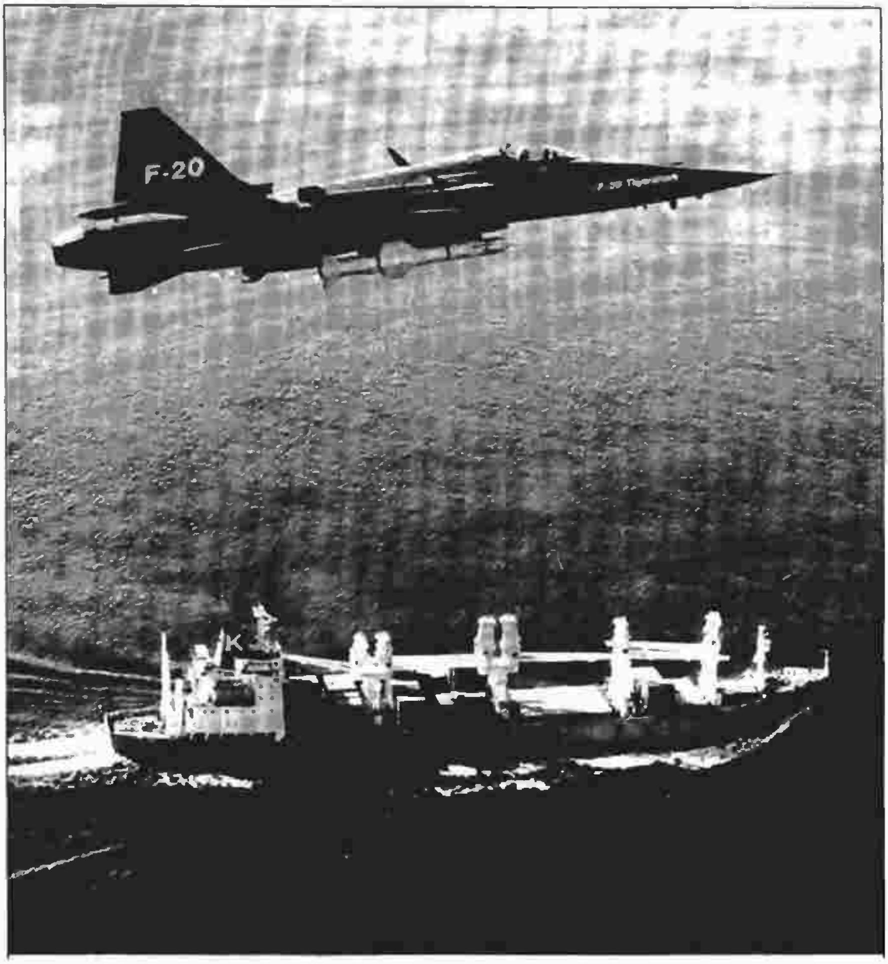

ـ طائرة مقاتلة تراقب خطوط النقل البحري .

السفينة الأمريكية «بيوبلو» في المياه الدولية في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦٨ ـ أثناء ما كان طاقمها المؤلف من ٨٢ بحّاراً مشغولين بمراقبة تركيبات الملاحة والرادار على طول الساحل ، فتمَّ احتجازهم كرهائن لمدّة ١١ شهراً في عمليّة وصفها منشقّ تشيكوسلوفاكي فيما بعد بأنها مؤامرة أعد لها الكرملين بعناية لإذلال أمريكا ، وإحباط أعمال التجسس التي تقوم بها الولايات المتحدة ، والتبيين لقادة كوريا الشمالية بأنّ روسيا يمكن أن تكون حليفاً أقوى بكثير من الصين . وقد نجحت

المكيدة بشكل لم تحلم به روسيا ذاتها . فإلى جانب الضربة الدعائية ، حصل الروس على تفاصيل عن عمليات ورموز الولايات المتحدة في المحيط الهادي مكّنَتِ الإستخبارات الروسية من قراءة الآلاف من الرسائل التي تم التنصت عليها لدى الإرسال في السابق والتي كانت مُخزَّنة على أشرطة تسجيل . وطالب التحقيق الأمريكي باتخاذ إجراء تأديبي بحقّ الضابط لويدمارك بوتشر وضابط الاستخبارات المسؤول عنه ، لكن سكرتير البحرية جون هـ . تشافي قال : «دعوهما . لقد عانيا بما فيه الكفاية» .

وغاص الإستطلاع البحري إلى ما تحت الأمواج . فأسقطت السويد والنرويج قذائف أعماق على غواصات سوفييتية مشكوك بأمرها كانت تطوف تحت الماء خلسة على طول شواطئهما في مطلع الثمانينات . وتمّ اكتشاف جهاز مراقبة يعمل بالأمواج الصوتية تحت مياه المحيط قرب شاطىء أمريكا الغربي في شهر حزيران من عام ١٩٨٣ ، وكان أداة روسية لمراقبة تحركات الغواصات النووية الأمريكية ـ لكنّ أحداً لم يعرف كيف تمَّ تركيبها ، أو منذ متى هي هناك .

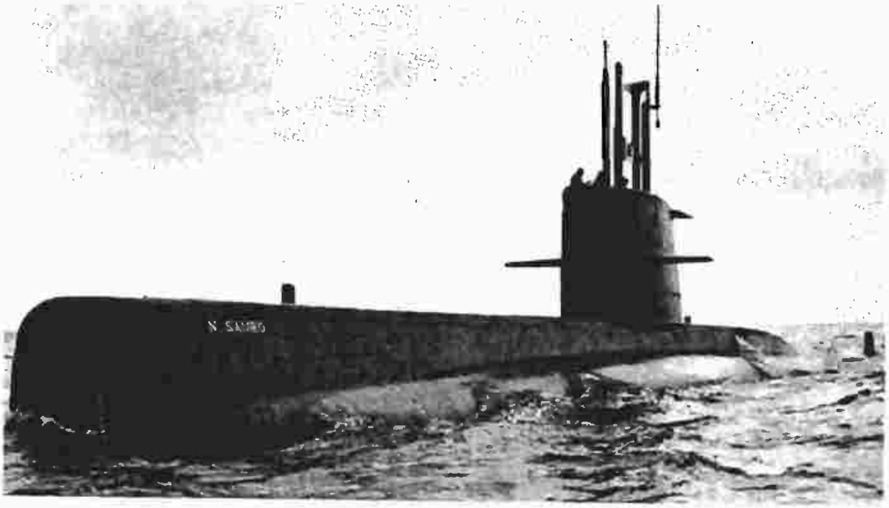

ـ غواصة حديثة .

ـ منظار الكتروني لمراقبة تحركات العدو ليلاً نهاراً .

وتمّ تحسين العمل الالكتروني السري على البرّ أيضاً حتى وصل إلى مستويات مذهلة . فأدارت وكالة الأمن الوطني الأمريكية ومقر الإتصالات الحكومي البريطاني شبكة مؤلفة من ٢٠٠٠ محطة تنصت حساسة للغاية امتدت حول الكرة الأرضية ، من ألاسكا حتى أستراليا ، ومن بلايز إلى بوتسوانا ، ومن كندا الى قبرص ـ حتى أنّ هنالك محطتين في شمالي الصين يُسمح للصينيين بتشغيلهما مقابل مشاركتهم المعلومات عن تحرّكات القوات السوفييتية . وأثناء إسقاط الطائرة الكوريّة في شهر آب من عام ١٩٨٣ ، كانت تلك المحطات ـ بالاضافة الى محطّات أخرى في تايوان وهونغ كونغ وكوريا الجنوبية ـ تتنصّت على اتصالات ملاحي طائرات الميغ مع موجهيهم الأرضيين .

تَصُبُّ المعلومات التي تلتقطها كل هذه الأعين والآذان في مراكز عصب التجسس التابعة لوكالة الأمن الوطني الأمريكية ومقر الإتصالات الحكومي . بنسبة تصل إلى أكثر من مليون كلمة في الثانية . وتقوم ذاكرات الحاسبات الالكترونية في كل من المركزين المذكورين بفك رموز المخابرات وترجمتها وتفسيرها وتحليلها على الفور . كما أن العقول الإلكترونية قادرة على البحث راداريا بين أربعة ملايين

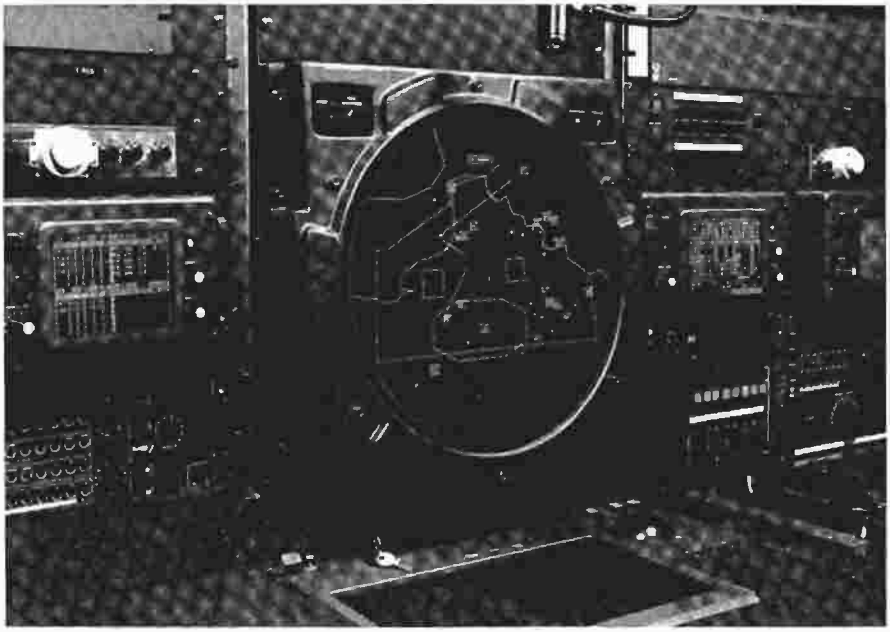

ـ لوحة مراقبة الكترونية في طائرة تجسس حديثة .

شخصية في الثانية ، وقراءة وفهرسة أي صحيفة خلال الوقت الذي يستغرق لفظ عنوانها ، وقد تمَّت برمجتها لمعرفة مكان الكلمات والأصوات المطلوبة وإعطاء إنذار كلما حصل شيء غير اعتيادي . وتقدم وكالة الأمن الوطني الأمريكية لوحدها ٤٠ طناً من الوثائق يومياً ، معلومات مفصلة عن الشؤون الدبلوماسية والسياسية والعسكرية والإقتصادية في العالم بأسره ، للبيت الأبيض وسادة التجسس في واشنطن .

كما تُوضَعُ فقرات مختصرة عن أحداث الساعة أمام أولئك الذين يودون الإطلاع على آخر التطوّرات .

وادّعى المراقبون الغربيون معرفتهم الفورية عن أي مكان يتم إطلاق صواريخ حلف معاهدة وارسو منه ، ومتى تقلع طائرة ما ويتحرّك جيش . وبإمكانهم تمييز كل ملّاح من دول المعسكر الشرقي من خلال إشارة اتصاله .

وعلمت وكالة الأمن الوطني الأمريكية ومقر الاتصالات الحكومي البريطاني مسبقاً ، بسبب ازدياد الإتصالات اللاسلكية ، عن أزمة الصواريخ الكوبية في عام

١٩٦٢ والغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ . ساعدت أعمال التنصت البريطانية أمريكا على معرفة نوايا العدو خلال الحرب الفييتناميّة ، وردت الولايات المتحدة الصنيع ذاته بتسليم الرسائل الأرجنتينية خلال مواجهة الفولكلاند . وعندما قامت بريطانيا بمناقشة مشروع إدخالها في السوق المشتركة ، كانت معرفة نوايا الحكومات الأوروبية الأخرى أكثر من مفيدة في الصفقة .

كتب رئيس مقر الإتصالات الحكومي البريطاني إلى نظيره في وكالة الأمن الوطني الأمريكي : «لقد تأكدنا ، فيما بيننا ، بأنّ الأغطية والملاءات تلفّ أسرة الأشخاص النائمين الذين نراقبهم ، وتغطيهم جيداً» .

لكنّ تلك الثقة تزعزعت بعنف في عام ١٩٨٢ . إذ عرف العالم بأن أحد الروس قد تسلل إلى السرير ، وأنّ آخر تقنيات عصر الفضاء يمكن أن تصبح غير صالحة من جراء تدخل شخص بشري صغير بمفرده في آلة الإستخبارات العظيمة . . .

حسب رأي خبراء الإستخبارات العاملين لدى حلف شمال الأطلسي ، فقد تدفق أكثر من ٢٠٠٠٠ جاسوس روسي الى الغرب في مطلع الثمانينات ومعهم تعليمات بشراء الأسرار التقنية أو استعارتها أو سرقتها . وكانت روسيا تحاول مجاراة التقدّم الغربي في مجال الالكترونيات دون أن تُضيعْ الوقت وتستنفذ المصادر . فاشترى العملاء ، الذين كانوا من الطلاب أو رجال الأعمال ، ألعاب الأطفال الالكترونية لتستطيع موسكو معرفة كيفية برمجتها . وبدأت المحلات ورجال الأعمال الزائفين بطلب المنتجات التقنية التي كان يتم شحنها إلى روسيا . وتمتّ سرقة الأهداف التي لم يستطيعوا شراءها من المصانع والمعارض . واستُخدمت أدوات عصر الفضاء البريئة المظهر في أنظمة المراقبة والتوجيه في الصواريخ . وقال ناطق رسمي من الإستخبارات المركزية الأمريكية : «لقد تمّت سرقتنا من مئات الملايين من أموال دافعي الضرائب التي أنفقناها على تطوير الوسائل التقنية لدينا قد تسربت إلى الجبهة السوفييتية .

لقد طوّروا أنظمة عسكرية معقدة تضاهي تلك التي لدينا ، دون الإنفاق الباهظ على الأبحاث والتطوير الذي كان يرافق مكاسب كهذه في العادة .

جيفري برايم: أخطر الجواسيس على الاطلاق؟

لقد وُصِفَ «جيفري آرثر برايم» بأنّه شخص يحبّ العزلة ويعوزه التأقلم مع مجتمعه، كما كان فاقت أهميته بالنسبة للكرملين أهمية «كيم فيلبي» نفسه. وقد سببت الأسرار التي لا تقدر بثمن بعد خيانته لها أعظم أزمات الثقة في التحالف الإنكليزي الأمريكي خلال ٣٠ عاماً. ولدى إصدار الحكم عليه بالسجن لمدة ٣٨ سنة في سجن أولد بايلي، قال القاضي «لاين» بأن المتهم قد أنزل ضرراً بالغاً لا يمكن تعويضه على بريطانيا والدول الصديقة لها. وقال النائب العام السير ميشيل هافرس، الذي طلب أن تتم بعد جلسات سماع الأقوال في سريّة تامّة: «إن تسريب خطورة ما فعل برايم وماهية المعلومات التي مررها سراً يمكن أن تعود بالضرر على الأمن الوطني».

ومن غير المنطقي أن يكون إلقاء القبض على الشخص العادي المظهر، الذي وضع دفاعات الغرب في خطر داهم لمدة تقارب ١٤ عاما، كان بسبب اهتمامه المنحرف بالفتيات الصغيرات. ومقابل خداعه للبيت الأبيض وتفشيله لأكثر أنظمة العمل السري كلفة وتعقيداً، فقد تلقّى ٧٠٠٠ جنيه إسترليني من سادة الجاسوسية في موسكو. وقال أحد الرجال الذين عملوا معه: «عندما أفكر بالمعلومات التي مرت من على مكتبه، يتصبب العرق البارد من جبيني»، لأن «برايم»، المنظّم والدقيق، كان بامكانه إبقاء الإتحاد السوفييتي متقدماً بخطوة واحدة عن منافسيه في مجال أخطر سباقٍ لأسلحة الإبادة الشاملة على مر العصور. وتشاء سخرية الأقدار أن تكون بريطانيا هي التي أدخلته مجال العمل التجسسي للمرة الأولى.

تم استدعاء «برايم» - ابن العامل في مصنع الأسلاك النحاسية في «ستافورد - شايز -» لأداء الخدمة العسكرية في عام ١٩٥٦. وكانت الحياة مملة بالنسبة له في عمله بسلاح الجو الملكي، لكنها على الأقل كانت فرصة للهروب من طفولته البائسة. وبعد أن قضى عامين في الخدمة الإلزامية، تطوع للعمل عشر سنوات في سلاح الجو، لكنّه لم يقلع بطائرة مطلقاً. إذ جعلته مؤهلاته اللغوية مناسباً للعمل في الإستخبارات، وتم إرساله إلى كلية حربية في اسكوتلندا لدراسة اللغتين الروسية والألمانية.

وساعدته هذه الدراسة على الإنضمام إلى فريق التنصّت الذي يستمع إلى الإتصالات اللاسلكية السوفييتية . كما ساعد في منطقتي تشيدل وتشيشاير على تحديد مواقع التحرّكات الجوية الروسية بمراقبة التعليمات المعطاة للطيارين . واستمع إلى الإتصالات اللاسلكية التي كانت تُرْسِلُها وتَسْتَقْبلها الجماعات التي تساندها موسكو في كينيا . وفي عام ١٩٦٤ . تمّ إرساله إلى خط الحرب الباردة الأوّل في برلين الغربيّة . كان جزء من واجبه الإستماع إلى البرامج التي يبثها راديو موسكو . ولما تضايق من نظام الإستعمار الكيني المتلاشي ، بدأت رسائل موسكو الإذاعية تثير تعاطفه نحو الجناح اليساري . وقال فيما بعد بأنهم قدموا له ما انتظره منذ زمن طويل : «شيء يمكن الوثوق به» . فدفع خلسة بورقة صغيرة إلى أحد

ـ جيفري برايم : أخطر الجواسيس . **Geoffrey Prime**

حراس الحدود الشيوعيين على نقطة تفتيش سور برلين في شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٨ . وبعد عدّة أسابيع وجد أسطوانة معدنية معلقة بباب سيارته ، وكانت بداخلها تعليمات تقضي بتوجهه إلى محطة شارع فريدريك حيث سيتصل به عميلين روسيين اسميهما الحركيين «إيغور وفاليا» .

لو أن الشكوك راودت الروس حول إخلاص «برايم» ، فهو قد بددها خلال وقت قصير ـ لأنه كان متشوقاً لإرضائهم . فقام بإخبارهم عن كل ما يعرفه عن نشاطات سلاح الجو الملكي في قاعدة غاتو ببرلين الغربية ، وقدَّم لهم صوراً لمديرية الهاتف الداخلية في القاعدة . كما كشف أيضاً أسرار «المستنقع» ، وهو اسم أُطلق على أداة حولت البث الراداري السوفييتي إلى صور الكترونية ترصد تحركات طائرات معاهدة حلف وارسو . كان قادة موسكو واثقين من أن انشغال رادار حلف شمال الأطلسي أبقى الطائرات بعيدة عن مراقبته ، فلما علموا بالتطورات أصدروا أوامرهم بتغيير ذبذبات الرادار فهزموا مراقبي طائراتهم .

عندما انتهت فترة تقاعد «برايم» مع سلاح الجو الملكي في أيلول من عام ١٩٦٨ ، شجعه إيغور وفاليا على التقدّم بطلب توظيف في وزارة الخارجية في بلده . فتقدّم إلى مؤسسة الخدمات اللغوية الفنيّة ؛ وهي هيئة تقوم بترجمة وفحص وتحليل رسائل الكتلة الشرقية التي يتم التنصّت عليها . فأهّلته مهاراته اللغوية المتميّزة لأن يكون مرشحاً مناسباً ، ولم تواجهه عقبات للحصول على تصريح أمني للعمل مع الإستخبارات . وبعد أن جنّدوا جاسوسهم ووضعوه في العمل المناسب ، بدأت الإستخبارات الروسية بتدريبه .

تمّ أخذ «برايم» إلى ألمانيا الشرقية لتلقي دروس في كيفيّة استخدام الحبر السرّي ، وأجهزة التنصت والكاميرات المصغرة والإرسالات اللاسلكية برموز الشيفرة ـ بإرسال الرسائل اللاسلكية بسرعة في ثواني ليتم تسجيلها وإعادة الاستماع إليها على جهاز التسجيل بالسرعة العادية . وتم إعطاؤه اسم حركي هو روندز وكلمة سر لاستخدامها أثناء لقائه بالعملاء الذين يتصل معهم ، إذ كان عليهم أن يقولوا : «أعتقد بأني رأيتك في مدينة بطرسبورغ عام ١٩٦٨» . وكان عليه أن يجيب : «لا ، لقد كنت في ذلك الوقت في برلين» . وعاد إلى لندن وعمله في مؤسسة الخدمات اللغوية الفنية ، التي تُشرف على جسر بلاكفرايرز ، وهو

يحمل حقيبة أخفى بداخلها دفتر فك رموز الشيفرة وأوراق طباعة خاصة ومغلفات معنونة مسبقاً لتُرسل إلى برلين الشرقية ومبلغ (٤٠٠) جنيه استرليني .

أَسْعَدَ اجتهاد «برايم» وتفانيه بعمله رؤساؤه البريطانيين وسادته في موسكو معاً . ولم يوقف زواجه من المعلّمة هيلينا أورغان في عام ١٩٦٩ دفق المعلومات إلى الإستخبارات الروسية . وكتب رسائل لا معنى لها إلى «لورا» في برلين الشرقية . ثم كان يقوم بكتابة الرسائل الحقيقية بين الأسطر مستخدماً الحبر السري وورق الطباعة الخاص ـ فلا يمكن كشفها إلاّ باستخدام أشعة إكس . وفي بعض الأحيان ، كان يترك المعلومات في صناديق بريد مهجورة ليقوم عملاء الإتصال من السفارة السوفييتية بالتقاطها ، ويعود لأخذ الدفعات وملحوظات التهنئة من أماكن سريّة أخرى ـ وقد اشتملت على جذع شجرة قرب غابات آبي ، وبقعة أرضية سرية قرب محطة بينستيد للسكك الحديدية ، ومنطقة قرب بحيرة إيشر .

ومع انهيار حياته الزوجية في أواخر عام ١٩٧٢ ، فَقَد كتاب رموز الشيفرة ، ولم يعد قادراً على تفسير التعليمات المرسلة إليه . ورغم أنه كتب إلى برلين الشرقية موضحاً ما حدث ، لكنّ الإستخبارات الروسية لم يفعلوا شيئاً ؛ ربما لأنّهم خافوا أن يكون أمر رَجُلهم قد انكشف . ولما عاد للوحدة والضياع ثانية في أثناء تفاقم خلافه مع هيلينا ووصوله لحدّ الطلاق ، أصبح «برايم» مكتئباً واحتاج لعلاج نفسي ـ لكنّه لم يخبر الطبيب عن سرّ تجسسه . ثم عاود الروس الاتصال به في أواخر عام ١٩٧٤ . وقام رجل وامرأة لهجتهم أوروبية شرقية بتسليم حقيبة أخرى تحتوي على معدّات تجسس ، بالإضافة إلى مبلغ ٤٠٠ جنيه إسترليني ، إلى منزل شقيقه غلاديس . ابتهج «برايم» ثانية ، وعاد للعمل .

تم استدعاؤه إلى العاصمة النمساوية ، فيينا ، في عام ١٩٧٥ ، للقاء رؤسائه السوفييت . فلقد حذرهم عميلين في أمريكا من أقمار الريوليت الصناعية ـ التي تمّ إطلاقها إلى مدارات تبعد عن الأرض ٣٥٤٠٥ كم (٢٢٠٠٠ ميل) فوق أفريقيا وبورنو لمراقبة كمية ونوعية الصواريخ بعيدة المدى الموضوعة في أوروبا الشرقية . أرسل الجواسيس الأمريكيون تفاصيل ميكانيكية والكترونية ، لكنّ موسكو احتاجت لمعرفة وفهم رسائل الأقمار الاصطناعية ـ وتقديم معلومات مزيفة لها . وكان «برايم» على إطلاع بتلك الأسرار منذ عام كامل . فأخذ معه إلى فيينا

ملفاً من الصور التي كشفت جميع تلك الأسرار . وعاد إلى بريطانيا بعدما تقاضى (٨٠٠) جنيه استرليني . ثم عاد إلى النمسا في العام التالي ، ليخبرهم عن مدى جودة تضليل الإشارات المزيفة للغرب حول قوة الصواريخ الروسية . وكان ذلك تضليلاً مكّن موسكو من إنشاء تفوق قيادي في سباق التسلح بالصواريخ النووية ، رغم ما جاء في معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية في عام ١٩٧٢ .

لكن نظام الريوليت كان مجرّد جزء من «مشروع بيمان» ـ وهو سلسلة أقمار مصممة للسماح لقوات حلف شمال الأطلسي بالقيام بمراقبة كل نواحي الحياة السوفييتية دون إعاقة . كما ويشتمل على «آرغوس» ـ وهو قمر استطلاع صناعي سري للغاية يمكنه التنصّت على جميع الإتصالات السلكية في الإتحاد السوفييتي. كما كان بالإمكان مراقبة الإتصالات اللاسلكية بين قادة المدّرعات أثناء أداء التمارين والمحادثات الهاتفية بين الكرملين وقادة قواعد الصواريخ وحتى نظام الحاسبات الالكترونية العسكرية الروسية أو مراقبة كل ذلك بالأشعة . وكانت المعلومات تدخل في حاسبات الكترونية مثل «كراي ـ ١» الموجود لدى وكالة الأمن الوطني الأمريكية ، الذي يستطيع إدخال ٣٠ بليون كلمة في ذاكرته والقيام بـ ١٥٠ مليون عملية حسابية في الثانية . حيث يتم فك رموز الرسائل وترجمتها آلياً على الفور ، ثم يتم اختيار الرسائل الهامة بنظام تمييز للكلمات المطلوبة . لكن مع نهاية عام ١٩٧٦ ، عرفت الإستخبارات الروسية عن كل تفاصيل الشكر السري الموجّه «لبرايم» ففي شهر آذار من العام ذاته ، تم نقله إلى واحد من مركزي عصب شبكة المراقبة ؛ مقر الإتصالات الحكومي البريطاني في تشيلتنهام . وتم تعيينه خلال أشهر في وظيفة محلل الرسائل السرية في الفرع ج المختص بمعالجة ومراقبة إتصالات الكتلة السوفييتية الهامة من محطات أرضية منتشرة في أوروبا والشرق الأوسط وقبرص . وكان برايم مسؤولاً عن فريق عمل مؤلف من ٣٠ عميلاً لديهم أوامر تقضي بإطلاعه على آخر الرسائل أهمية . وبصفته رئيس قسم ، فقد جلس في اجتماعات وضع الخطط ، مما أعطاه فرصة للإطلاع على معلومات الأقسام الأخرى .

وكان بإمكان «برايم» الآن أن يُخبر الإستخبارات الروسية بالضبط عن الرموز والشيفرة التي تمّ حلّها ، وتحديد أهداف سريّة مُعيّنة . وبسبب إطلاعها على مناطق الإهتمام ، كان بإمكان موسكو أن تُحدّد المناطق المجهولة للغرب .

وأثناء استخدام رموز شيفرة جديدة للرسائل الحقيقية ، كان بإمكانها إعطاء معلومات مزيفة للمخدوعين . وساعدت الحقائق الزائفة على تنمية الشقاق بين شركاء حلف شمال الأطلسي ، إذ شجعت الغرب على إضاعة الوقت والأموال على تطوير الأسلحة الخاطئة لمجابهة منتجات حربية سوفييتية لا وجود لها . وحرّكت دفاعات أوروبا الغربية إلى مواقع مهلكة بدرجة شاملة . وقال الخبراء فيما بعد بأن حلف شمال الأطلسي كان سيؤخذ بغتة لو أن روسيا قامت بغزو ألمانيا خلال أوج نشاط «برايم» ، الذي جعل الحِيَل ممكنة ، وكان بإمكانه إخبار موسكو عن جدوى نجاحاتها .

قرعت أجراس الإنذار في واشنطن فى أواسط عام ١٩٧٧ . فعندما حوّل المتحكمين بحركة الطيران الجوية في « مورمانك » بثهم إلى موجة إرسال جديدة ، حذرت وكالة الأمن الوطني الأمريكية مقر الإتصال الحكومي البريطاني من وجود جاسوس سوفييتي لديهم في تشيلتنهام . فما كان من الروس إلا أن أوقفوا اتصالهم «ببرايم» الذي قدّم استقالته في شهر أيلول مفضّلاً ألاّ يخاطر أكثر من ذلك كي لا ينفضح أمره . كان قد تزوج من رونا راتكليف قبل شهرين ، وأصبح الأب البديل لأبنائها الثلاثة . وقاما بشراء منزل بسعر ٣٧٠٠٠ جنيه استرليني ، وأخبر برايم المتسائلين بأن حياته العائلية الجديدة كانت «السبب الشخصي» وراء تركه للعمل في مقر الإتصال الحكومي البريطاني . وأضاف بأن مركز تشليتهام كان «إمبريالي جداً ، ومتخلّفاً ٥٠ سنة عن رَكْب التطوّر» . وادعى محاموه فيما بعد بأنه لم يعد يستطيع تَحمّل عذاب كونه عميلاً مزدوجاً . وقال بأنّ الروس وعدوه بتعويض جيد إن هو انشقّ إلى موسكو ، وقد حجز مرتين على رحلات متجهة إلى هلسنكي ، لكنه كان يعود قبل أن يصل إلى مطار «هيذرو» لأنه لم يستطع تَرْك رونا والأولاد . وفي الحقيقة فإن هناك أسباب وجيهة تدعوا إلى الإعتقاد بأن «برايم» كان ما يزال عميلاً سوفييتيّاً نشيطاً .

أصبح سائقاً لدى شركة سيارات أجرة محلية في تشلتكس . ولقّبه زملاؤه «بوريس» و«الرفيق برايم» لأنه قضى فترة الإستراحة أثناء العمل بالجلوس في سيارته لقراء المجلات الروسية أو الإستماع إلى إذاعة موسكو . ومع هذا لم يمانع أحد عندما تطوع للقيام بتوصيل العمال العاملين في مقر الإتصالات الحكومي البريطاني بشكل منتظم إلى منازلهم ، وجمع أو تسليم وثائق وأشرطة كمبيوتر ، فكان هذا العمل غطاءً مثالياً لزياراته المتوالية إلى مركز التجسس ، ومكّنته من التنقل في أرجاء المنطقة دون أن يثير الريبة .

نادراً ما يفوّت سادة الجاسوسية السوفييت الفرصة في جهودهم المبذولة للحصول على المعلومات . ففي شهر آذار من عام ١٩٨٢ ، تم الكشف عن أنّ رجال الإستخبارات الروسية وقادة المُدَرَّعات كانوا يقومون بجولات على دول أوروبا الغربية على أنهم سائقي شاحنات . وقد اعتقل رجال الشرطة النمساويين أحدهم كان قد حوّل موجة جهاز اللاسلكي في سيارته إلى شبكة قيادة الجيش العليا ، وكان يحاول فك رموز الشيفرة باستخدام جهاز كمبيوتر مُصغَّر . ولوحظ سائقوا الشاحنات في هولندا وهم يقومون بسبر أعماق الأنهار والبحث عن النقاط الضحلة التي تصلح لمرور المدرعات وعربات النقل . وبعد شهرين ، دخلت جماعة غريبة من السياح مدينة أنتورب لقضاء إجازة ، وأمضوا أربعة أيام وهم يبدون إعجابهم بالبوابات المغلقة الممتدة على طول نهر شيلدت ، ويلتقطون صوراً للمرفأ البلجيكي المزدحم . ولم نعرف إلا فيما بعد بأنّ ٢٥ شخصاً ألمانيا شرقيّاً ضخام الجثة كانوا أعضاء في وحدة مغاوير هدفها التخريب ، يقومون بالتجسس على البر لمعرفة امكانية شلّ حركة المرفأ في أحد الأيام .

تمّ التعتيم على فضائح تجسس في مدينة «ساي وان» الصغيرة ، مركز التنصت في هونغ كونغ التابع لشبكة الإستخبارات البريطانية العالمية ، في عامي ١٩٦١ و١٩٧٣ . ففي البداية تمّ اكتشاف فريق مؤلف من أربع رجال يرأسهم الشرطي السابق «جون تسانغ» وهم يرسلون تقارير يوميّة إلى بكين ، فتم ترحيلهم . وقد جَنّد الصينيون «تسانغ» أثناء دراسته في جامعة كامبريدج بانكلترا . وبعد أحد عشر يوماً ، انشق عاملي جهاز لاسلكي تايوانيين ، وقد أخذا معهما معلومات غاية في الأهميّة عن نشاطات المراقبة التي كانا يقومان بها .

لم تفقد الإستخبارات الروسية اهتمامها «ببرايم» بالتأكيد . ففي شهر أيار من عام ١٩٨٠ ، ذَهَب بالطائرة إلى فيينا مرَّة ثانيةً ، وقام بتسليم (١٥ شريط فيلمي ـ تحتوي على صور لـ ٥٠٠ وثيقة سريّة مأخوذة من مقر الإتصالات الحكومي البريطاني ـ أثناء جولة في زورق على مياه «الدانوب» . قام بها مع رؤسائه . وقيل أثناء محاكمته بأن تلك الأفلام قد تمَّ أخْذها خلال الأشهر الأخيرة قبل تركه لمقر الاتصالات الحكومي البريطاني . ولم يعرف الرأي العام لماذا دفع الروس «٦٠٠»جنيه استرليني مقابل تلك الأفلام بعد قرابة الثلاث سنوات . وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨١ ، عاد «برايم» من بوتسدام وفي جيبه (٤٠٠٠) جنيه ، رغم أنه أخبر القضاة في «أولد بايلي» بعد عام واحد بأنه لم يكن مستعداً للإجابة على أية تساؤلات تطرحها الإستخبارات الروسية حول مركز تشلتنهام .

في تلك الأثناء، كان «برايم» قد ترك عمله في شركة سيارة الأجرة وأصبح بائعاً متجوّلاً لتجار الخمور في مدينة بريستول . وكان سيئاً جداً في عمله لدرجة أنّه اضطر لشراء صناديق الزجاجات بنفسه لابقاء سجل مبيعاته على المستوى المطلوب . ومع هذا فقد كان هذا العمل تغطية ممتازة لتحركاته السريّة . وفي ذلك الوقت لم يكن للسرية علاقة بالتجسس . كما كان «برايم» يعاني دائماً من الإنحراف ، إذ قام رجال الشرطة باستجوابه ، في شهر نيسان من عام ١٩٨٠ ، عن تحرّشاته غير المحتشمة في تشيلتنهام ، لكنهم استبعدوه عن نطاق تحرياتهم بالمشبوهين . وبدلاً من أن يُخيفه ذلك التحذير ، تمادى في أفعاله . فجمع فهرساً بأسماء (٢٢٨٧) فتاة وعناوينهن من مقالات في الصحف المحليّة في «غلوشستر شاير» و«هيرفورد شاير» فأعطته تلك المقالات أرقام هواتفهن جميعاً ، وكانت المحظوظات منهن قد تلقين مكالمات قذرة . أما الأخريات فقد حادثهن لفترة كي يعرف متى يكنّ بمفردهن في المنزل . ثم اتصل «برايم» بهم شخصياً بصوته الحقيقي ، وقال بأنه مستعد للعمل في الدهان أو تمديد أنابيب المياه .

ونجحت خدعته لمدّة عامين كاملين . لكن الحظ تخلّى عنه في شهر نيسان من عام ١٩٨٢ ، إذ هرب من منزل في منطقة بيرستون واين في هيرفورد شاير ، بعدما صرخت ضحيته . ولمح الجيران سيارة متميزة اللون من نوع كورتينا . وتحرَّى رجال الشرطة قائمة من (٤٢٦) مالك لسيارات كهذه . وبعد ستة أيّام من تهجمه .

استدعاه رجال الشرطة من منزله . أنكر «برايم» مسؤوليته . لكنّه أخبر «رونا» في تلك الليلة عن تهجماته وتجسسه . وفي صباح اليوم التالي ، الجمعة ٢٦ نيسان ، اتصل بالشرطة ليعترف بثلاثة تهجمات بذيئة . فتمّ اعتقاله وتوجيه التهم إليه . وظهر فيما بعد بأن أعماله التجسسية ما كانت لتنكشف لو لم يتم اعتقاله وقد اعترف بها لزوجته في الليلة السابقة .

قاومت «رونا» صحوة ضميرها لمدة ثلاثة أسابيع . ثم وجدت حقيبة تحت سرير الزوجية ، وقد احتوت تلك الحقيبة على ما قال عنه السير مايكل هافرس : «أدوات لا يمكن أن يستغني عنها أي جاسوس عصري» - جهاز لاسلكي وأشرطة وحقائب سوداء صغيرة تحتوي على مفكرات و٢٦ مغلفاً عليها عنوان برلين الشرقيّة . وبعد أن استشارت «رونا» محاميها وطبيبها ووالديها ، ذهبت إلى الشرطة . وبعد مواجهة «برايم» باعترافها ، وافق أخيراً على مناقشة موضوع خيانته . وصدر الحكم بإدانته ، في قاعة المحكمة الأولى في أولد بايلي ، بسبعة تُهَمْ تسريب معلومات ذات فائدة للعدو بين شهر كانون الأول من عام ١٩٦٧ وشهر تشرين الثاني من عام ١٩٨١ ، بالإضافة الى ثلاث تهم تعدي بذيء .

وقالت زوجته - التي وعدت بأن تقف إلى جانبه - هيئة المحكمة : «لقد تغيّر . فقد تخلّص من حمله الثقيل وأصبح رجلاً آخر الآن . لقد كان شخصية معذّبة» . وطالب المحامي المكلف بالدفاع جورج كارمان هيئة المحكمة بأن تأخذهم الرأفة لدى إصدار الحكم ، وقال : «لقد كان عدم التأقلم مع البيئة الاجتماعيّة وراء نزوعه نحو الأرض الخصبة التي قدمتها له دعاية النظام السوفييتي ، مما أغراه على الخيانة بدعوى المثالية» . لكن القاضي «لاين» لم يتأثر بكلام الدفاع ، وقال لبرايم : «لقد طُلب مني أن لا أعاملك على أنك جاسوس عنصري لا يعرف الشفقة . لكني أجد نفسي مضطراً للقول بأن ذلك الوصف يناسبك تماماً» .

صدر الحكم بسجن الخائن ٣٨ سنة لفترتي حكم من ١٤ سنة متعاقبة على التهم المتعلقة بزياراته إلى «فيينا» - والتي تعتبرمن أكثر جرائم الخيانة خطورة - تزامنت مع سبع سنوات سجن على خمسة تهم تجسسية أخرى ، وثلاث سنوات على تعدياته البذيئة . وقد أوضحت رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر بأنباء سربتها لصحفيين موثوقين بأن «برايم» لن تتم مبادلته مطلقاً بأي غربي محتجز في الكتلة

الشرقية . لكنها اعترفت لمجلس العموم بأنّه حذر الروس عما كان الغرب يعرف عن دفاعاتهم ، وكيفية الحصول على المعلومات . وإذا كانت هي غاضبة على برايم ، فإن الأمريكيين قد طاش صوابهم ، وكانت هنالك مخاوف لفترة من الزمن من أن تؤدي المخاوف من غضب البنتاغون[1] المكظوم إلى قطع التعارف التجسسي المشترك بين البلدين . ووُصِفت قضية «برايم» بأنّها أسوأ أزمة فقد ثقة منذ انشقاقات بورغيس وماكلين في عام ١٩٥١ ، وأسوأ ضربة تتلقاها الإستخبارات الأمريكية لعقدين من الزمن . وقال متحدث رسمي في البنتاغون : «لقد عرف الروس عن مقر الإتصالات الحكومي البريطاني أكثر مما عرفناه نحن» . وكانت هنالك تلميحات متشائمة بأنّ «برايم» لم يكن يعمل بمفرده ، إذ قيل للصحفيين في واشنطن بأنه كان : «قمة جبل الجليد» . وقد عرف هوية ثلاثة على الأقل من الجواسيس الآخرين العاملين في مركز تشلتنهام .

تحمّل فحص السلامة الأمني البريطاني الإيجابي وطأة الهجومات الأمريكية وكشفت السيدة تاتشر عن أنّ برايم كان قد سرّب نموذج ذلك الإجراء الأمني أربع مرات في السابق خلال عمله . واشتمل التدقيق الأمني الإيجابي ملفاً عن العاملين تضمن استطلاعاً للاهتمامات والمعارف ، وإعطاء اسمي شخصين يمكن الإتصال بهما في حال حدوث طوارىء . ومن المفترض أن يكشف عن ميول جنسية معينة والآراء السياسية والمشاكل الشخصية التي سببها الإدمان على تناول المشروبات الروحية أو المخدرات أو الإسراف في إنفاق الأموال . وقد صرّح عضو مجلس الشعب السير بيرنارد براين أن أحداً لم يكتشف علاقة «المنبوذين والمنحرفين والمدمنين» بالإستخبارات الروسية . وكان بإمكان العملاء أن يكذبوا بسهولة للإفلات من العقوبة . كما وصف السيد تيموثي كيتسون ـ رئيس لجنة العموم لشؤون الدفاع ـ الإجراء الامني بأنه كالمسلخ . وكان بكلامه هذا يعكس انطباع واشنطن لسنين عديدة . فقد طالبت وكالة الأمن الوطني الأمريكية والإستخبارات المركزية الأمريكية باستمرار الحكام البريطانيين بالتضحية بالحرية الشخصية لمصلحة الحصول على ضمان أمني محكم أكثر منه في الوضع الراهن والتأكد من ذلك باختبارات على جهاز فحص الكذب ، والإستماع عشوائياً لمكالمات هاتفية ، والسرية التامة في العمل ، لكن بلا جدوى .

تزايد غضب الأمريكيين من عمل البريطانيين ، الذي تنقصه البراعة والحرفنة ، بعد تحذيراتهم من وجود جاسوس في مركز تشلتنهام في مطلع عام ١٩٧٧ . وأيّد «جوك كاين» ـ الموظف في مقر الإتصالات الحكومي البريطاني لأكثر من ٣٠ سنة حتى عام ١٩٧٨ ـ المخاوف الأمريكية ، وقال بأنه كان متأكداً من وجود جاسوس آخر في الإدارة ؛ «ذو مركز مرموق يتيح له الإطلاع على التقارير التي تذهب إلى مجلس الوزراء» . وأثناء ما كان لدى الغرب تحذير مسبق عن الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٨ ، فقد تفاجىء بالغارة على أفغانستان في عام ١٩٧٩ وعلى بولونيا في عام ١٩٨٠ . وادعى كاين بأن اضطراب التنصت على الرسائل الدبلوماسية والعسكرية التي سبقت كلا الحدثين قد «فُقِدَت» ، أو تمَّ تحليلها بشكل خاطىء ، أو إخفاؤها بذكاء .

وأخبر العمال المتواجدين في مقر الإتصالات الحكومي البريطاني الصحافة عن سوء الحالة الأمنية هناك . ففي نفس اليوم الذي دخل فيه «برايم» إلى السجن ، وضع مقر الإتصالات الحكومي البريطاني إعلاناً في جريدة «التايمز» لتوظيف خبير لغوي يتقن اللغة الروسية ، فقامت بمقابلة جواسيس جدد تقدّموا لهذه الوظيفة . وادعى زوجين بأنهما أخذا جهاز كمبيوتر من مركز تشيلتنهام معهما إلى المنزل خلال عطلة نهاية الأسبوع ليلعبا بألعاب الفضاء الالكترونية مع أطفالهما . وقال أحد الرجال بأن البطاقات البلاستيكية المعطاة للعمال لا يتم التدقيق فيها على الإطلاق . إذ أخذ بطاقة زوجته خطأً للعمل دون أن يلاحظ مسؤولي الأمن الفرق . وزعمت إحدى السكرتيرات بأنها وصلت ذات صباح لتجد البوابات مفتوحة ، والحراس نيام . وقيل بأن الدهانين وعمال الصيانة كانوا يتجولون دون التدقيق بأمرهم أثناء الليل . وكشف عمال المكاتب بأن ولاعات ومقتنيات شخصية أخرى قد اختفت من على مكاتبهم أو دروجها . وبنفس السهولة كان من الممكن أن تكون تلك الأغراض وثائق سريّة .

لم يكن أمام بريطانيا وأمريكا سوى السكوت ؛ ومحاولة إنقاذ علاقة الثقة من الإنهيار المفاجىء . وعرفت الأمتين بأنهما بحاجة لمساعدة بعضهما البعض لمواجهة أعمال التجسس السوفييتية واختراق الكتلة الشرقية ، رغم كل ما يمكن أن يقوله الرأي العام . وبدأ الرئيس ريغان برنامج إعادة تسلح كبير لمجابهة النواقص التي

أحدثتها خيانة «برايم» . وأعاد قادة حلف شمال الأطلسي إعادة تقييم خططهم الحربيّة . وأرسلت وكالة الأمن الوطني الأمريكية نائب المدير السابق لديها ـ بنسون ك . بافهام ـ لمراقبة قوة الإجراءات الامنية في مركز تشلتنهام .

فبعيداً عن الأسئلة الواضحة ـ كيف فشل التدقيق الأمني الإيجابي بالكشف عن أعمال «برايم» التجسسية واهتماماته الاجرامية بالقاصرات ؟ كيف استطاع السفر إلى بلدان الكتلة الشرقية بحرية دون أن يثير الشكوك ، والمرور من الجمارك دون أن يكتشفوا بأنه كان يحمل معدات تجسس ؟ هل كشف العملاء الغربيين ومكّن موسكو من معرفة الأشخاص الذين يقومون بتسريب المعلومات ؟ لماذا سمحت له الإستخبارات الروسية بمغادرة مركز تشلتنهام في عام ١٩٧٧ ـ كان هناك شعور عميق بالخوف . وعندما تمّ تفتيش منزل «برايم» ، اكتشف رجال الشرطة كتباً عن تبادل المعلومات والطوابع ومجلات تصدرها مؤسسة أمريكية وتعرض فيها الاهتمامات الجنسية المنحرفة . كما وجدوا قائمة شاملة بأسماء مساعديه في مركز تشلتنهام . وتم تنزيل مرتبة خمسة أشخاص فيما بعد إلى وظائف لا يطلعون فيها على الأسرار التي كان برايم يقرؤها . والإحتمال المرعب أن يكون «برايم» قد استخدم معلوماته الداخلية والأشخاص الذين يتصل بهم لمعرفة المنحرفين ، لإمداد موسكو بمواد مصائد الإبتزاز .

أعاد «برايم» القلق الى الرأي العام بعدما كان قد هدأ منذ فضائح التجسس في أوائل الستينات من هذا القرن . وتزايد هذا القلق بصدمة أنّ باستطاعة رجل واحد أن يؤثر بهذا الشكل على أسرار عصر الفضاء المُكْلِفة . وكتب الدكتور دايفيد أوين ـ الذي كان وزير خارجية في حكومة حزب العمال وأصبح زعيم الحزب الديمقراطي الاشتراكي الجديد في بريطانيا في عام ١٩٨٢ ـ في جريدة «الديلي مايل» :

«إننا بريطانيون معتدون بأنفسنا من ناحية مجابهة خطر شخص مشكوك بأن يكون جاسوساً . وفي خضم الصراع البذيء ، لا يمكننا تجنّب استمرار التلاعب بكل جزء ضئيل من القوانين الملكية . تدور الآن رحى حرب طاحنة ، وفي زمن الحرب عليك أن تستخدم معايير أقسى وأغلظ من أولئك التي تعتمدها في الأحوال الطبيعيّة . . إن علينا الإمساك بهؤلاء الجواسيس قبل أن يتمكنوا من إلحاق الضرر بنا ، لا أن نقوم بسجنهم بعد أن تكون أسرارنا قد أصبحت في خارج البلاد» .

قريباً سيصدر الكتاب التالي :

الجاسوسية في عصر الالكترونيات

★ يبين هذا الكتاب كيف تحصل أجهزة الاستخبارات العالمية على المعلومات الدقيقة بمساعدة التكنولوجيا الالكترونية الحديثة في الجو والبحر والبر .

★ هذا الكتاب سيكون الأول من نوعه في المكتبة العربية لأنه سيحوي على معلومات يطلع عليها القارىء العربي لأول مرة .